أزمات مطلع القرن السابع عشر وقيام الدولة العلوية

نعم المغرب بعد الانتصار الذي حققه في معركة وادي المخازن على البرتغال سنة 1578 بمرحلة من الاستقرار السياسي والانتعاش الاقتصادي، فبعد توليه الحكم، عمل السلطان أحمد المنصور على تفعيل مشاريعه التحديثية التي شملت الميادين العسكرية والاقتصادية والإدارية والعمرانية.

لكن على الرغم من الجهود التي بدلها السلطان المنصور، وبالرغم من الصورة المشعة التي أصبح المغرب يتمتع بها على الصعيد الدولي، إلا أن البلاد عرفت في عهده مجموعة من الأزمات استمرت منذ توليه الحكم إلى ما بعد وفاته، بل إلى حدود منتصف القرن السابع عشر، ولم تنته إلا بوصول الشرفاء العلويين إلى الحكم.

تمثلت هذه الأزمات في أزمات سياسية على رأسها مشكلة انتقال الحكم وما صاحبها من ثورات أدت إلى تجزئة المغرب بين زعامات محلية تنافست فيما بينها للسيطرة على البلاد، وأزمات اجتماعية اقتصادية ارتبطت بتوالي سنوات المجاعات والجفاف ودورات الأوبئة، إضافة إلى أزمات دبلوماسية ارتبطت بالتدخل الأجنبي في الشؤون الداخلية للمغرب وعودة الاحتلال الإيبيري للسواحل المغربية.

1-شكلت أزمة ولاية العهد بعد وفاة السلطان أحمد المنصور أهم الأزمات السياسية التي عرفها المغرب مطلع القرن السابع عشر.

بالرغم من سعي السلطان أحمد المنصور إلى التأسيس لقاعدة قارة تضمن سلاسة انتقال الحكم داخل البيت السعدي، عن طريق تعيين ابنه محمد الشيخ المامون وليا للعهد، إلا أن وفاته المفاجئة وهو في طريق العودة من مدينة فاس، بعد أن استخلف ابنه زيدان عليها، غداة إيداعه ولي عهده المامون في السجن، ودون البث في أمر ولاية العهد للمرة الثانية، أشعلت فتيل الثورة. إذ بادر أهل فاس إلى مبايعة ابنه زيدان، ولما بلغ خبر الوفاة والبيعة إلى مراكش، ثار أهلها وبايعوا أبا فارس لأنه كان خليفة والده في مراكش. بالمقابل أفتى علماء فاس بوجوب قتال المراكشيين. وهكذا التقى جيشا الأميرين الأخوين على ضفة نهر أم الربيع. أناب أبو فارس في هذه المعركة أخاه الشيخ المامون عن نفسه، بعد أن أطلق سراحه من السجن. وأسفرت المعركة عن انهزام زيدان وفراره إلى تلمسان، وانضمام جنده إلى جند المأمون الذي انقلب على أخيه أبي فارس وأعلن نفسه ملكا على فاس.

ظل الإخوة الثلاثة بعد ذلك يتنازعون الملك مدة طويلة دون أن يتم الأمر لواحد منهم، وعمت الاضطرابات أرجاء البلاد كلها، وانتهى أمر الشيخ المامون مقتولا في تطوان سنة 1613، كما قتل أخوه أبو فارس خنقا قبله، أما زيدان فقد اكتفى بحكم مراكش، وصرف نظره عما وراء نهر أم الربيع، وترك أمر فاس وغيرها لعبد الله بن الشيخ المامون ومنافسيه من الثوار. وقد انقرض أمر السعديين في فاس بموت عبد الملك بن الشيخ المامون سنة 1627، وبقي أبناء زيدان يتوارثون إمارة مراكش إلى أن قتل آخرهم أبو العباس أحمد بن الشيخ بن زيدان سنة 1658 على يد الشبانات الذين حكموا مراكش إلى حدود سنة 1669.

2-أسفر الصراع حول السلطة بين أبناء السلطان المنصور على تمزق وحدة البلاد بين مجموعة من الزعامات المحلية

ارتبط ميلاد الزعامات المحلية بمقاومة الوجود الأجنبي الذي استقر على السواحل بعد انحسار السلطة المركزية السعدية، وعجز أبناء المنصور على القيام بواجب الجهاد، خاصة بعد أن سلم محمد الشيخ المامون مدينة العرائش للإسبان سنة 1610.

وقد تمثلت هذه الزعامات في شيوخ الجهاد والزوايا إلى جانب الموريسكيين الذين استقروا بسلا.

ففي شمال المغرب تزعمت حركة الجهاد أسرتان أندلسيتان هما أسرة النقسيس وأسرة غيلان،

-فبالنسبة لأسرة النقسيس: فقد أخضع أحد أفرادها، وهو محمد النقسيس، مدينة تطوان، التي كان يهددها الخطر الإسباني، لحكمه سنة 1597، دون أن يعلن الخروج عن طاعة السعديين، لكن بعد وفاة المنصور، انخرط آل النقسيس في الصراع الدائر حول الحكم، فأعلن أحمد النقسيس الثورة على المامون ودعا لزيدان سنة 1610، كما رفض استقبال المامون بعد عودته من إسبانيا، وفر إلى جبال غمارة. وفي سنة 1613 عاد إلى تطوان، وبما أنه ظل محافظا على ولائه لزيدان، فقد قتل قائد المدينة الذي عينه المامون، كما تآمر مع المقدم أبو الليف على قتل المامون، وهو الأمر الذي تم في نفس السنة.

- وفيما يتعلق بأسرة غيلان، التي استقرت ببلاد الهبط، فقد تصدى زعيمها، علي غيلان، ابتداء من سنة 1617 للجهاد ضد الإسبان في العرائش. واتخذ خليفته الخضر غيلان من مدينة القصر الكبير مقرا لإقامته ومركزا رئيسيا لحركته من أجل مواجهة الإمارة الدلائية، وقد انتهى أن أمر أسرة غيلان نتيجة انهزام المجاهد الخضر غيلان أمام جيش مولاي الرشيد، واضطر إلى مغادرة المنطقة والتوجه إلى الجزائر طلبا لدعم الأتراك.

- أما عدوتا الرباط وسلا، اللتان استقبلتا، بعد صدور مراسيم الطرد في حق الأندلسيين، أعدادا هامة من الموريسكيين، فقد استقر هؤلاء الوافدون الجدد بالقصبة ونظموا أنفسهم كجالية مستقلة، وتوسعوا في الرباط وسلا بعد تضاعف أعدادهم، وأسسوا ديوان سلا، وتزعموا حركة الجهاد البحري بأن أعطوا دفعة قوية لنشاط القرصنة، بعد أن أنشأوا أسطولا وجه ضرباته ضد السفن الإسبانية، وكانوا يؤدون عشر الغنائم للسلطان زيدان مقابل السماح لهم بمزاولة نشاطهم،. لكنهم ما لبثوا أن تخلصوا من التبعية لهذا السلطان، ودخلوا في سلسلة من التحالفات مع الزعامات المحلية المتنازعة حول السلطة، فتحالفوا في البداية مع المجاهد العياشي، إلا أن تعامل بعضهم مع الأجانب، والصراعات الداخلية بينهم أتاحت الفرصة للعياشي للسيطرة على المدينتين، ثم استنجدوا بشيخ الزاوية الدلائية للقضاء على حركة العياشي، ولما حاولوا الاستقلال من جديد حاصرهم محمد الحاج الدلائي إلى أن تمكن من تشريدهم. وهكذا لم يتمكن موريسكيو سلا من إقامة كيان سياسي مستقل، واضطروا في نهاية الأمر للانصهار في المجتمع المغربي.

-فيما يخص الحركة العياشية: انطلقت هذه الحركة بزعامة محمد بن عبد الله العياشي من مزكان الجديدة بمباركة من السلطان زيدان، لكن العلاقة بين المجاهد العياشي والسلطان ساءت، مما دفع هذا الأخير إلى اللجوء إلى سلا،

حيث اعتمد على الأندلسيين لشن حملات جهادية على المحتل الأجنبي بكل من المعمورة والعرائش وطنجة، لكن الأندلسيين بدأوا بالتخابر مع الإسبان والإنجليز مما جعله يستصدر فتوى بتكفيرهم قبل أن يطردهم من الرباط وسلا، بعد أن يسط سيطرته على المدنيين، فاضطر هؤلاء إلى اللجوء إلى الزاوية الدلائية، وسعوا إلى الإيقاع بين أهلها وبينه، فكانت النتيجة أن تمت تصفيته والقضاء على حركته على يد الدلائيين سنة 1641.

-وفي مراكش ظهر ابن أبي محلي الذي دعا لنفسه بها، وكان قد بدأ دعوته من مسقط رأسه بوادي الساورة. وعلى إثر تسليم المامون العرائش للإسبان، دعا الناس للجهاد وانتشرت دعوته بالجنوب الشرقي، وسيطر على منطقة درعة قبل أن يدخل مدينة مراكش ويطرد منها السلطان زيدان السعدي ويضرب السكة باسمه. انتهت حركة ابن أبي محلي بعد أن أوكل السلطان زيدان مهمة القضاء عليه للشيخ يحي الحاحي الذي تمكن من هزمه وقتله سنة 1614.

لكن يحي الحاحي بعد قضائه على ثورة ابن أبي محلي، لم يقم بتسليم مدينة مراكش للسلطان زيدان، بل قرر الدعوة لنفسه وأعلن استقلاله بها، ولم يتمكن السلطان السعدي من استرجاعها إلا سنة 1617.

-وأسس أبو حسون السملالي، الذي تميزت حركته بطول المدة الزمنية وشساعة المجال الجغرافي، إمارة بمنطقة سوس، وسعى إلى بناء دولة مركزية انطلاقا منها، حيث تلقب بالسلطان، وأسس مدينة إليغ التي اتخدها قاعدة ملكه، وتوسع في اتجاه تافيلالت، وتمكن من أسر المولى الشريف شيخ العلويين، لكن توسعه في اتجاه الشمال الشرقي اصطدم بالزاوية الدلائية التي كانت تسعى إلى بسط سلطتها على مناطق الجنوب الشرقي للأطلس المتوسط.

-أما إمارة الدلائيين التي تنتسب إلى قبيلة مجاط الصنهاجية، فمنذ تأسيسها أصبحت ملجأ للثائرين زمن الأزمة السياسية، وقد برزت كقوة سياسية منافسة للكيانات السياسية الأخرى بعد أن أصبح محمد الحاج شيخا لها سنة 1637، والذي بدأ يتطلع إلى السيطرة على فاس ومكناس في أفق التمكن من بقية البلاد، إلا أن التوسع الدلائي في اتجاه الواحات الجنوبية اصطدم بمقاومة الإمارة العلوية الناشئة التي تمكنت من القضاء على نفوذ الزاوية الدلائية، بأن دكها المولى الرشيد سنة 1668.

-فيما يتعلق بإمارة العلويين، فقد دفعت أطماع كل من الدلائيين والسملاليين في السيطرة على منطقة تافيلالت، أهلها لمبايعة مولاي الشريف العلوي سنة 1631 للتصدي لاطماع هاتين الإمارتين. وتطلع محمد بن الشريف الذي خلف أباه سنة 1640 إلى التوسع في اتجاه المغرب الشرقي وما جاوره من تراب المنطقة الوهرانية، فربط تحالفات مع قبائل بني معقل وقاد سلسلة من الحركات ببلاد بني يزناسن قبل أن يتوجه شرقا صوب تلمسان وتاهرت والأغواط، لكنه لم يحاول توطيد مكتسباته الترابية، إلى أن كانت نهايته بأنكاد سنة 1664 على يد أخيه مولاى الرشيد، الذي أبان عن طموح كبير في تأسيس دولة والعمل على تخليصها من تناحر الكيانات المحلية، فبعد أن استتب له الأمر بالمغرب الشرقي، تطلع مولاي الرشيد إلى ضم بقية البلاد وإخضاعها لسلطته. لم يتطلب منه الأمر أكثر من خمس سنوات، فبعد أن اتخذ من مدينة تازة عاصمة له، حاصر مدينة فاس، ودخلها

وقتل المغامر الدريدي الذي استبد بها ، ثم توجه صوب الشمال حيث طرد الخضر غيلان من القصر الكبير، وقبض على آل النقسيس وأتباعهم بتطوان، وهزم الدلائيين وهدم زاويتهم وغربهم إلى فاس وتلمسان، دخل مراكش فقضى بها على حاكم الشبانات قبل أن يضم بلاد السوس والأطلس الصغير واضعا بذلك حدا لنفوذ السملاليين. وعندما عاد إلى فاس كان قد وحد المغرب كله.

-إلى جانب الأزمات السياسية التي تخبط فيها المغرب، فقد كان خلال الفترة الممتدة ما بين سنتي 1597-1662 عرضة لمجموعة من الجوائح الطبيعية من أوبئة وتوالي سنوات الجفاف وانتشار المجاعات. كان وقع هذه الكوارث وازنا على الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية، ففضلا عن النزيف الديموغرافي الناتج عن وفاة ما بين ثلث ونصف سكان المغرب، والذين كانوا يشكلون قوة منتجة مهمة، وفرار الناجين إلى الأماكن الآمنة، أصبحت السهول فارغة وتوقف الإنتاج الزراعي خاصة إنتاج السكر وانهار تصديره، وتباطأت وثيرة المبادلات وارتفعت أسعار المواد الغذائية. وزاد من تأزم الوضع لجوء المخزن إلى منع التنقل خوفا من انتشار العدوى مما أضر بالتجار والمسافرين وحال دون حركية البضائع، كما تقلص الإنتاج المعدني أيضا، وتراجعت المداخيل الجمركية والضريبية جراء فراغ المراسي وعدم قدرة الجباة القيام بتحصيل الضرائب، إلى جانب انتشار عمليات النهب وقطع الطرق. كما خلف عدم انتظام التساقطات وانتشار القحط مجاعات قاتلة وغلاء شديدا بسبب النقص في المؤن ونهبها من طرف الجائعين أو مصادرتها من طرف مستخلصي الضرائب.

شكل التدخل الأجنبي في شؤون المغرب الداخلية مظهرا آخر من مظاهر أزمة القرن السابع عشر.

- فقد أصبح المغرب عرضة لأطماع الدول الأوروبية بعد أن عادت هذه الدول، غداة وفاة المنصور، لتوجيه أنظارها إلى الساحل المغربي، مستغلة حالة انقسام المغرب وتعدد أدعياء الملك، وحاجتهم للدعم المادي والعسكري والصداقات الأوروبية، وذلك بعد فترة التوقف التي أعقبت نجاح الدولة السعدية خلال مرحلة التأسيس في تحرير الكثير من الثغور التي كانت خاضعة للبرتغال.

فقد ربط زيدان علاقات مع هولندا من أجل الحصول على الأسلحة، في حين لم يتورع أخوه المامون عن التنازل لإسبانيا عن مدينة العرائش مقابل التوصل بمساعدات عسكرية، خاصة بعد أن بدأت جنوده تنهزم أمام قوات أخيه زيدان بزعامة أخيه أبي فارس وابنه عبد الله، فقام بإخلاء المدينة من سكانها في 20 نونبر 1610 وتسليمها للإسبان مقابل 200 ألف دوقة و6000 بندقية.

واصلت إسبانيا اهتمامها بالسيطرة على نقط بالساحل المغربي، وركزت على المعمورة، التي بمجرد تخلصها من الاحتلال البرتغالي أصبحت مركزا لاستقطاب القراصنة من مختلف الجنسيات، الذين جعلوها نقطة ارتكاز لعملياتهم، فازدهرت بها العمليات التجارية، واستقلت تحت حكم القراصنة، مما جعلها تمثل خطرا على التجارة الأوروبية، فأسرعت إسبانيا في تنظيم حملة عسكرية عليها للتخلص من خطر القراصنة، وفي نفس الوقت كي تسبق هولندا التي كانت قد قررت، باتفاق مع زيدان، على وضع يدها على المعمورة. وقد تمكنت القوات الإسبانية من الاستيلاء على حصن المعمورة في 6 غشت سنة 1614.

-فيما يتعلق بتدخل الدولة العثمانية، لم تستغل الدولة العثمانية جو النزاع الذي عرفه المغرب بداية القرن السابع عشر، ولم تحاول اقتطاع أجزاء من التراب المغربي، بل اقتصر دايات ولاية الجزائر العثمانية على دعم بعض مدعيي السلطة واستقبال اللاجئين منهم. فقد استقبلت الجزائر زيدان عندما اضطر إلى الفرار بعد انهزامه أمام أخويه المامون وأبي فارس، وأقام مدة بتلمسان، وحاول انطلاقا منها الاتصال باستانبول التي وعدته بالمساندة. كما وصل وفد تركي لتهنئة أبي محلي بانتصاره ودخوله سجلماسة، مما يدل على سابق علاقة بينه وبين الأتراك، ولجأ الخضر غيلان أيضا إلى تلمسان بعد أن هزمه مولاي الرشيد. كما تجدر الإشارة إلى التعاون الحاصل بين قراصنة الجزائر وقراصنة مدينة سلا في حروبهم ضد السفن الأوروبية عموما والإسبانية على وجه الخصوص.

خلاصات:

يعتبر القرن السابع عشر من الفترات الصعبة في تاريخ المغرب، وهو بذلك لا يشكل استثناء عن بقية العالم: فقد تميز بضراوة الحروب بين الطامعين في الاستئثار بالسلطة على غرار ما عرفته أوربا نفسها من حروب، لعل أهمها حرب الثلاثين سنة، كما أنه زمن الأوبئة بامتياز، لقد كان للتغير المناخي والانتقال من دورة جافة إلى دورة رطبة أثره على انتشار الأمراض التنفسية وأوبئة أخرى لا تقل ضراوة عن الطاعون الأسود الذي عرفه المجال المتوسطي ما بين سنتي 1348 و1352 . وقد كان للحروب من جهة والأوبئة والمجاعات من جهة أخرى أثر كبير على الأوضاع الديموغرافية في بلدان المتوسط ومن بينها المغرب، ومن ثمة على الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية، وتجاوزتها إلى التأثير على القضايا الثقافية، وبدا هذا الأمر واضحا في كثرة المصنفات المتعلقة بكتب النوازل الفقهية.

بيبليوغرافيا

أميلي (حسن)، **الجهاد البحري بمصب أبي رقراق خلال القرن السابع عشر الميلادي**، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، المحمدية، دار أبي رقراق، 2006.

حجي (محمد)، **الزاوية الدلائية ودورها الديني والعلمي والسياسي**، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية الرباط، 1988.

جادور (محمد)، **مؤسسة المخزن في المغرب**، مؤسسة الملك عبد العزيز آل سعود، الدار البيضاء، 2011.

الشاذلي (عبد اللطيف)، **الحركة العياشية حلقة من تاريخ المغرب في القرن السابع عشر**، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، 1982.

القبلي (محمد)، (إشراف وتنسيق)، **تاريخ المغرب تركيب وتحيين**، منشورات المعهد الملكي لتاريخ المغرب، الرباط، 2012.

القبلي، (محمد)، (إشراف وتنسيق)، **موجز تاريخ المغرب**، منشورات المعهد الملكي لتاريخ المغرب، الرباط،

Castries (Henri de), **Les sources inédites de l'histoire du Maroc**, 1ère série, Dynastie sa'dienne, Archives et bibliothèque de France, Tome III, Ed. Ernest Leroux, Paris, 1911.

Maziane,(Leila), **Sale et ses corsaires** (**1666–1727**) **Un port de course marocain au XVIIe siècle**, publications des Universités de Rouen et du Havre, Presse universitaire de Caen, 2007.

Rosengerger (Bernard) et Triki (Hamid), « Famine et épidémies au Maroc aux XVIe et XVIIe siècles »,in, **Hespéris Tamuda**, vol.XIV et XV. 1973-1974, faculté des lettres et des sciences humaines, Rabat.p.24-103.